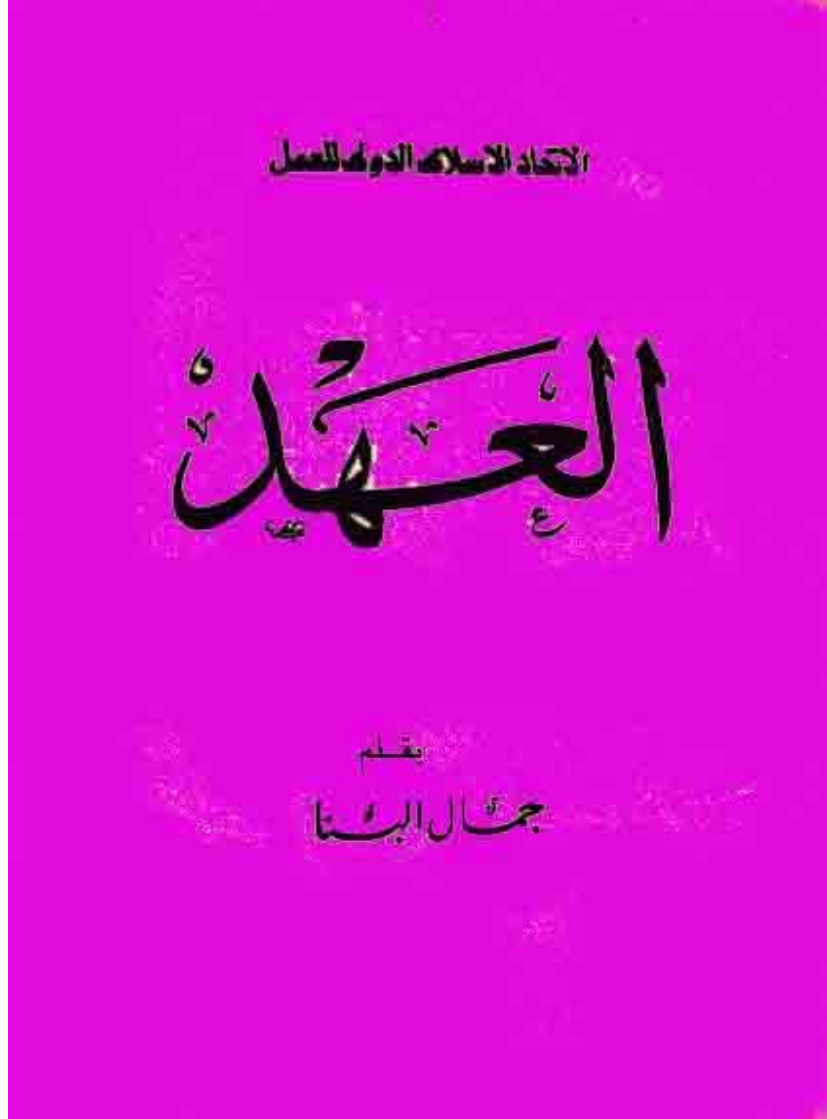


العهد (*)



(*) كتبت هذه الرسالة كأحدى الكتيبات الثقافية للاتحاد الإسلامي الدولي للعمل في عام ١٩٨٢م، ولم تعرض للبيع، وإنما كانت توزع على فروع أعضاء الاتحاد.

[١]

لنكن أمناء، ولننزع الشر من قلوبنا، إنها الخطوة الأولى على الطريق.

- (١) ليس من قبيل السذاجة أو الدردشة أو الجهل بالأولويات أن نبدأ بهذا، فما لم يكن في النفس إحساس عميق بالأمانة والخير والطيبة، وتوجه يقظ لانتزاع الشر ومقاومة نزعاته، فلا فائدة من أي شيء يأتي بعد ذلك، إن العالم الذي نطلق عليه "العالم المتقدم" يتخبط ويتدهور لا لأنه جاهل أو فقير، فلم يصل التعليم أو الوفرة إلى ما وصل إليه في هذا العالم، ولكنه يعاني الويلات ويقاسى العذاب، لأنه لم يتجه لانتزاع الشر، بل أسلم نفسه إليه، ومما لا يكاد يصدق أن تنفق الدول الكبرى على وسائل الحرب والخراب والتعاسة والشقاء أضعاف ما تنفقه على وسائل السلام والبناء والسعادة والهناء، وأن تدمر الطيبات من الرزق فيقذف بها في البحر أو تطعم للحيوانات والملايين في آسيا وأفريقيا تموت جوعاً، إن من المستحيل تبرير مثل هذه حماقة في عالم "عقلاني" إلا بسيطرة الشر وسلطان الظلام.
- (٢) نحن نعنى بالشر إيذاء الغير والإساءة إليه إيجاباً أو سلباً دون أي مبرر يقره الإسلام وبقية الشرائع قمعاً للجريمة، وحفظاً للسلام، فكل صور الإساءة والإيذاء والاستغلال والظلم والاعتصاب والإهانة والإذلال تدخل في باب الشر، ويبلغ الشر درجة المقت والدرك الأسفل في التعذيب.
- (٣) يظهر الشر عندما تنعدم القيم والمثل العليا، وعندما تهيمن الأنانية والأثرة والغرور والكبرياء، لقد كانت "أنا خير منه" هي منطلق الشيطان للشر، وهناك بعد عوامل البيئة وانحرافات التربية وآثار الوراثة.
- (٤) القلب في الاصطلاح القرآني هو مركز العاطفة والإحساس والإدراك، وهو الذي يميز بين الخير والشر، الهدى والضلال، ومن هنا جاء تركيز القرآن على القلب السليم، وقول الرسول ﷺ: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد، ألا وهي القلب".

لن نكون أمناء حقاً إلا إذا وصلنا قلوبنا بالله، إن العلوم والفنون والآداب والفلسفات وكل صور الهداية الأخرى لها قصورها، والقوة الوحيدة التي تكبح جماح النفس البشرية وتمنعها من الوقوع في الشر، وتلهمها القوة وتحقق لها السلام في النفس والمجتمع والكون هي الهداية الإلهية.

(١) تعجز القوانين والنظم وسياسات الحكام عن أن تغرس في النفوس حاسة الطيبة والخير، والابتعاد عن الشر والظلم، لأن هذا يخرج عادة عن اختصاصها، فضلاً عن أن الشكوك والظنون تصطبح بكل ما يصدر عنها كما تعجز العلوم؛ لأن العلوم لها الطبيعة الحيادية والتجريدية، ويمكن أن تستغل في الخير والشر على سواء. كذلك تعجز الفنون والآداب؛ لأنها ليست إلا تعبيرات عن مشاعر النفس الإنسانية بحسناتها وسوءاتها، قوتها وضعفها، ولهذا فقد تسمو بالنفس الإنسانية في بعض الحالات، كما يمكن أن تنحط بها في حالات أخرى، وحتى الفلسفة، فإن وجود النقائص الجدلية فيها، وآثار النسبية عليها وانعكاسات أصحابها وواضعيها، عليها تحول بينها وبين الصحة المطلقة بالإضافة إلى أنها مذهب القلة ولن تأخذ طابعاً جماهيرياً، وكل ما تضعه البشرية من نظم أو مثل أو مذاهب لا بد وأن تكون محكومة بالقصور البشرى والعجز عن الهيمنة على النفس البشرية وكبح جماحها.

لا يمكن أن تسلم النفس الإنسانية قيادها إلا إلى قوة أعظم منها، ولا قوة أعظم من الخالق، فخالق النفس البشرية هو جابلهما الذي يعلم بما توسوس به، وهو أقرب إليها من حبل الوريد، وهدايته هي التي تجعلها تميز بين الخير والشر وهي التي تعطيها السلام، فإيمان الإنسان بخالق عظيم حكيم قوى قاهر رحمن رحيم تشعره بالطمأنينة، وأنه ليس فريسة القدر الأعمى أو الصدفة الشرود أو القوى الشكسة للطبيعة وبقدر ما يثبت هذا الإيمان السلام في القلوب، فإنه يثبت الاستقرار في العقول؛ لأنه يرسى مبدأ "السببية" و"الغائية" فلا سبب بدون مسبب، ولا مخلوق دون خالق، ولا وجود دون غاية، والكون كله تربطه إرادة دقيقة واعية حكيمة، كما ينتظم هذا الشعور المجتمع بفضل الضوابط التي وضعها الإسلام، وأخيراً فإن المؤمن يحس بوشيجة ورحم تربطه بكل هذه الأكوان من شمس ونجوم وأراض وسموات، لأنها كلها من خلق الله، كلها تشترك معه في التسييح له والائتمار بأمره، إن القرآن يتحدث عن عوالم عديدة، ويشير إلى الأرض والشمس والقمر والنجوم والنبات والحيوان، كما لو كانت كلها حية تتحدث وتتكلم وأنها "أمم أمثالكم" والإسلام ينهى عن عضد الشجر، أو الإسراف في المياه، أو إلحاق الأذى بالحيوان، أو أي صورة من صور الفساد في الأرض أو انتهاك حرمتها، من أجل هذا يحس المؤمن بالإسلام بالسلام، السلام في النفس التي هي يد الله، والسلام في المجتمع المتوازن بالعدل، والسلام مع الأكوان التي تجرى لمستقر لها طبقاً لما وضعه الله من نواميس "لا الشمسُ يَبْغِي لها أن تُدركَ القمرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ"، ولا يمكن أن يصل اليأس بالمسلم حد الكفر أو الانتحار لأن إيمانه بالحقيقة الكلية "الله" أقوى من أي مؤثر آخر، وعندما يسلم نفسه أخيراً، فإنه إنما يستجيب للنداء الإلهي: "يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي".

(٢) بالإضافة إلى الإحساس بالسكينة والصفاء والثقة، أن سفينة الحياة تسير بتوجيه بوصلة لا تخطئ نحو شاطئ السلام وليس هذا بالشيء القليل، فإن الإيمان بالله يهبنا الحصانة ضد المغريات والشهوات العديدة التي تكتنف الحياة وتجعل النفس الإنسانية نهباً لها، كما يهبنا القوة إزاء الإرهاب والطغيان. هذه القوة التي يمكن أن تصل إلى الثورة عندما تنهياً الظروف أو الاحتمال حتى تنهياً الظروف بحيث لا تتمزق النفس الإنسانية بين الإرادة من ناحية وعدم تهيو الظروف من ناحية أخرى، ولا يمكن أن يعد هذا استخذاء، ولكن تحقيقاً لسياسة طويلة المدى وتوغياً للظروف الموضوعية ؛ لأن المؤمن لا يخشى الموت، وإنما يراه شهادة، ويعتبره أحد الحسنيين.

[٣]

لا بد من دين، ففي الدين وحده "الوحي" الذي ينقل رسالة الله، و"الأنبياء" الذين يتولون شرح وتبليغ هذه الرسالة، وهذا هو ما يميز الأديان عن الفلسفات والنظريات التي لا تستطيع أن تتصل بالله عبر وحي وعن طريق أنبياء، وبالتالي فإن فكرتها عن الله كانت محكومة بالقصور البشرى.

وقد أثبت التطور هذه "اللابد" للفرد والمجتمع، فظهرت الأديان مع ظهور الإنسان، وعكست أولى صور الانتماء، ثم أخذت مع الأديان السماوية الصورة الصادقة والمنهجية باعتبارها "أطر" العقيدة وبلورة الانتماء، ووصلت من القوة درجة الغريزة في الفرد، والضرورة في المجتمع. والأديان كلها بيت واحد، وكل دين لبنة فيه، وإنما حدث الخلاف نتيجة للتطور، وسوء الفهم والتحريف والمصالح المكتسبة.

والإسلام في مسيرة الأديان هو مسك الختام وتاج السلام.

في الفقرة السابقة قلنا : إننا لن نكون أمناء حقاً إلا إذا وصلنا قلوبنا بالله، وسلمنا له القيادة ولكي يتم هذا لابد للجماهير من دين، لأن الدين وحده هو الذي ينقل رسالة الله عبر وحي، وعلى أيدي أنبياء يتولون شرح وتبليغ الرسالة، وهذه "المواصفات" لا توجد في النظريات والفلسفات، ومن هنا فإن تصورها لله تعالى ولما تكون عليه رسالته كانت عاجزة محكومة بالقصور البشرى، وكانت الأديان وحدها هي التي تقدم التصور الحقيقي للألوهية الذي لا يرفضه العقل، ولكنه لا يستطيع وحده التوصل إليه، لأنه ليس مسألة حسابية ولأن للأديان أسلوبها ومنهجها في التوصل إلى الحقائق، ولأنها لا تعنى بالكيفية، ولكن بالماهية، والعلم يعجز عن معالجة الماهيات، وأدلة الإثبات في الإنسان لا تقتصر على العقل، حتى وإن كان العقل يحكمها، فالفطرة السليمة يمكن أن تتصور وجود الله، ولا يستطيع العلم أن يرفض ذلك أو يفنده، ونحن لا نعلم ماهية وسر الوحي، ولكننا نؤمن أنه من الله بحكم سلامة الرسالة إلى يأتي بها، وإعجازها، وتفوقها على كل ما جاء به عباقرة البشرية وفلاسفتها، وبحكم صدق الأنبياء، وأن أي احتمال لكذبهم في هذه القضية الرئيسية أمر مستبعد تماماً، وقائمة دائمة فلا تقوم قائمة للكذابين، ولا يتسق مع طبائع الأشياء، ومن هنا يكون علينا أن نسلم بالوحي كحقيقة حتى وإن لم نعلم تماماً ماهيته وسره.

(١) أثبت التاريخ والتطور صدق الأديان وأصالتها لأنها دون غيرها.

(أ) قدمت أكمل تصور للألوهية، يمكن للعقل البشرى استيعابه، وهو ما عجز عنه الفلاسفة والمنظرون وسدنة العقائد الوثنية. وما يتضح من مقارنة هذه التصورات الفجة بالتصور المعجز الذي قدمه الإسلام لله تعالى باعتباره أصل المثل الأعلى الكامل المطلق. لم يلد. ولم يولد. ومع هذا فهو أصل الحياة والخلق، تستشفه العقول والقلوب، ولكن لا تدركه الأبصار، وليس كمثل شيء.

(ب) أن الرسائل الدينية السماوية تمثل الكمال الموضوعي "فردياً" واجتماعياً" وتستعصي على التأثر بمحطاتها، وقوى الزمان والمكان.

(ح) أن ظهور حملة هذه الرسائل – وهم الأنبياء – إثبات للرسالة لأنه ليس لهم من وجود أو هدف سوى تبليغ هذه الرسالة دون أجر أو منصب.. الخ، وكأنما خلقوا لهذه المهمة الخاصة، فوجودهم دليل على وجود الرسالة، وأنها من الله.

(د) يدعم هذا ويؤكد من جانب آخر أن الرسل لم يكونوا من بين الذين يشتغلون بالعلوم والفلسفات حتى يمكن أن يقال أن رسالاتهم السماوية هي ثمرة بحثهم الفلسفي وفكرهم الخاص. فقد كانوا ناساً من الناس لا يتميزون عنهم بشيء، ويعملون فيما يعمل فيه الناس من حرف، والله وحده هو الذي أنعم عليهم بالقوة والعلم، وحاطهم بالرعاية، وجنبهم الضعف والقصور.

من أجل هذا آمنت الشعوب والجماهير بالأديان من أقدم عهودها بصرف النظر عن نظم الإنتاج والحكم واختلاف الأزمنة والأمكنة وارتضتها الجماهير، ولا تزال الأديان، ونحن في عصر الأيدولوجيات المذهبية والنظريات التي تستأثر بإيمان الجماهير، ولا يمكن أن يقاس بها ديمقراطية أو رأسمالية أو شيوعية.. الخ، ولم يكن عبثاً أن تناصبها أكثر هذه المذاهب ادعاءً العدا، وأن تزعم أن الدين هو أفيون الشعوب، لأنها نقت عليه أصالته وعراقته وتمسك الجماهير به، لهذا كله فإن منزلة الأديان أعلى بكثير من الفلسفات والنظريات، فهي أكمل نوعاً وأشمل كمّاً، وكانت هي التي أرست الأسس المعنوية للحضارة الإنسانية، وزودت الأفراد بقوة ذاتية دائمة ومستمرة هي الضمير، وخطة في الحياة تقوم على القصد والاعتدال وعدم الاستسلام للشهوات والنزوات، وبوجه خاص المال والنساء والسلطة، كما زودت المجتمع بمجموعة من النظم تكفل له السلام، وحررت الجماهير من حكم الطغاة، وقررت كرامة النفس الإنسانية.

(٢) قد يتصور البعض أننا في عصر "اللا دينية" وليس هذا صحيحاً، فلا بد لكل واحد من دين، ومن يؤمن حقاً "باللا دينية"، فإن اللا دينية تصبح ديناً يحارب في سبيلها كما يحارب المؤمن، أما السادر الغافل الذي يبدو وكأنه لا يعنى بالدين في قليل أو كثير فهذا هو الذي "جعل إلهه هواه" كما قال القرآن، فهو عبد شهواته وأبطاله من نجوم السينما والرياضة.. الخ، وقد أصبحت الشيوعية التي ناصبت الأديان العدا ديناً دون فضيلة الأديان، الأنبياء فيها "ماركس وإنجلز ولينين، والإله فيه هو المادية الجدلية، والمؤمنون به هو الحزب المؤلب بلهيب الحقد والطمع والطموح.

(٣) حقاً إن الأديان قد استغلت وزيفت على الشعوب، وتحدث باسمها السدنة والمرترقة وبطانة السلطان، وأساءت الجماهير نفسها فهمها، ولكن هذا كله ليس ذنب الأديان نفسها ولا هي وحدها التي تقف هذا الموقف، فقد زيفت دعوات الحرية والمساواة.. الخ، وهذا التزييف نفسه يدل على منزلة الأديان وأهميتها، فلا يزيف الرصاص والحديد، وإنما يزيف الذهب والفضة.

إن تعدد الأديان، والاختلاف بينها لا يزعنا البتة، بل إننا نراه من وجهة النظر الإسلامية، الأمر الطبيعي والمنتظر، فقد كان لابد لكل أمة من رسول يدعوها بلغتها إلى الإيمان، ويلحظ في تفاصيل دعوته تلك ظروف مجتمعه، لأن الأديان لا تقوم على المعجزات، وإن كانت لا ترفض المعجزات في بعض الحالات، ولكنها تقوم على مراعاة السنن التي وضعها الله لتطور المجتمعات فنشأت من هذا اختلافات

ثانوية بين الأديان، ولكن المحاور الرئيسية في الأديان السماوية واحدة، وهى وجود الإله الواحد الخالق للأكوان والممثل للكمال المطلق، والبعث والنشور والثواب والعقاب، وليس المهم " الوحدة" بين كل البشر في العقيدة، ولكن المهم السلام بينهم على اختلاف عقائدهم، والآيات القرآنية تثبت تعدد الأديان، وأنها كلها من الله يصدق بعضها بعضاً. وأن التوراة والإنجيل والقرآن، فضلاً عن كتب أخرى كلها كتب مقدسة نزلت من السماء، وأن تتفاوت بتفاوت المجتمعات، أو أنها إذا مست المحاور تعود إلى التحريف، أو سوء الفهم، أو المصالح المكتسبة والآيات القرآنية التي تعيد مثل هذا الخلاف إلى التحريف والمصالح المكتسبة أو الترجمات عديدة، كما تؤكد هذا المعنى الأحاديث التي تتحدث عن الأديان – قبل الإسلام – كبيت جميل لولا ثغرة فيه، والإسلام هو اللبنة التي تسد هذه الثغرة، وتشير إلى الأنبياء كإخوة. وأما الحكم في الخلاف ما بين هذه الأديان فمرده إلى الله وحده يوم القيامة... وليس لأحد أن يعطى نفسه هذا الحق أو تلك الصفة، وإلا كان نوعاً من الشرك، ومن السذاجة والأنانية ما يتصوره بعض المسلمين من أن الجنة مقصورة على المسلمين فحسب، وأن كل من سواهم في النار، فهذا يناقض روح الإسلام، وآداب الإسلام، فليس لأحد أن يتألى على الله أو يصادر على حكمه، أو يحتكر الجنة لفريق من الناس أو المسلمين، بل إن الإسلام نفسه ليس حكراً للمسلمين، إنه لكل البشر، وقد يوجد من هم أقرب إليه من غير المسلمين الذين "يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم"، وجاء في مقولة مشهورة للإمام الغزالي أن الناس بعد بعثة الرسول أصناف ثلاثة :

١- من لم تبلغهم دعوته، ولم يسمعوا به أصلاً، أولئك مقطوع لهم الجنة.

٢- من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه وما كان عليه من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا، أولئك مقطوع لهم النار.

٣- من بلغتهم دعوته وسمعوا به ولم يمتثلوا أوامرهم ونواهيهم وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم في الإيمان أصلاً، وواضح من هذا الحديث أن معظم غير المسلمين في العصر الحديث هم ممن ينطبق عليه الإشارة الأولى والثالثة، والأولى "مقطوع لهم الجنة"، والثالثة "أرجو لهم الجنة".

(٤) ولكن هذا كله لا ينفي أن الإسلام هو مسك الختام وتاج السلام في مسيرة الأديان ؛ لأنه – وهو اللاحق الأخير – يعترف بكل دين سابق، وبوجه خاص اليهودية والمسيحية، وبذلك يستبعد أكبر سبب لعداوتها له، بل إنه يسعدهما بذلك ويجعلهما يشكرانه له، وبهذا يتحقق السلام بين الأديان.

[٤]

لنجعل الأنبياء قادتنا وقدوتنا، ولنطرح الإعجاب بالطغاة الذين جعلوا سياستهم الاستعلاء في الأرض.

(١) يظهر استعراض التاريخ السياسي للبشرية أنها خضعت لقادة وحكام كانت وسيلتهم هي القوة الباطشة، وكان هدفهم هو الاستعلاء في الأرض، وأبرز الأمثلة على ذلك قادة الإمبراطورية الرومانية. ثم قادة الدول الأوروبية التي تأثرت عميقاً بالإمبراطورية الرومانية ونسجت على منوالها، ونعتقد أن من أكبر العوامل التي أدت إلى فساد الفكر السياسي إبراز الملوك والأباطرة والطغاة والقادة العسكريين، وإغفال الأنبياء، وأتباعهم من حواريين أو صحابة لأن إعجاب الطبقة المثقفة والحاكمة في أوروبا بالحضارة اليونانية والرومانية وأبطالها الوحشيين (الإسكندر - قيصر - أغسطس) وغيرهم هو الذي مهد السبيل لظهور " ميكيافيلي " وتقبل فصله الحاد ما بين السياسة والقيم الخلقية، وأدى إلى ظهور نابليون ولينين وهتلر وموسوليني وستالين وأمثالهم، ثم هو الذي سمح بوجود آدم سميث وكارل ماركس وعزلهما الاقتصاد وإبعاده عما ينبغي عليه من خدمة للمجتمع، وأدى إلى ظهور الرأسمالية والشيوعية، وطغيان المقوم المادي في المجتمع على بقية المقومات، والوضع السليم يقتضي إبراز هؤلاء الملوك والأباطرة على حقيقتهم طغاة استعبدوا الجماهير، ووضعوا سياسة الاستعلاء في الأرض، وجعل القوة والخداع وسائلهم لتدعيم سلطانهم، وإبراز الأنبياء باعتبارهم القادة الذين قاوموا هذا الطغيان ووضعوا الحق في مواجهة القوة المبدئية في مقابل الانتهازية، وأرسوا مبدأ كرامة النفس الإنسانية وقداستها ونجحوا بدرجات متفاوتة في إنفاذ البشرية من حكم الطغاة وسطان الظلام. وهذا هو النهج الذي رسمه القرآن عندما وضع موسى في مواجهة فرعون، وعندما جعل الرسالات السماوية هي محاور التاريخ، والرسول والأنبياء هم قادة الجماهير.

(٢) يسوى الإسلام بين الأنبياء " لا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ " وينظر إليهم كإخوة ويؤمن بهم جميعاً، وقد ذكر القرآن بالاسم بعضهم بينما أشار إلى وجود آخرين لم يقص سيرتهم على الرسول "وَرَسُولًا قَدْ فَصَّصْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْ لَهُمْ عَلَيْكَ"، ونحن لا نستطيع أن نقطع هل كان بوذا أو أفلاطون أو كونفوشيوس، أو اخناتون رسلاً أم لا؟ وما يمكن أن نقوله هو احتمال كونهم رسلاً ما لم تتضمن أقوالهم شيئاً من الشرك.

(٣) في شخصية محمد نجد المثل الأعلى لما يمكن أن يكون عليه رجل الدعوة، ورجل الدولة - الأمر الذي لم يتحقق في غيره من الأنبياء - باستثناء موسى التي تكتنف الأساطير حياته، ويقتصر أثره على بنى إسرائيل، وما يفترض أن يتسلح به من حكمة وحق، ويسلكه من خير وقصد.. ويستهدفه من تحرير.. وعدالة.. وقد أثبتت سيرته - كرجل دولة - أن هذا ليس مستحيلاً، وان كان صعباً، وحقق في المدينة كما حقق خلفاؤه الراشدون المجتمع الأمثل، ولم تعد البشرية في حاجة لاستلهاام جمهورية أفلاطون أو غيرها؛ لأن قيادة محمد والأمة التي أقامها بالفعل أفضل من كل هؤلاء، وهي بعد حقيقة وليست خيالاً، فلنحرر أنفسنا من الإعجاب بالطغاة، ولنرفض سياسة الاستعلاء في الأرض التي وضعوها، ولننخذ من الأنبياء وخاتمهم محمد القدوة والمثل.

لكي لا تتحول الأمانة إلى سذاجة والطيبة إلى غفلة، ولكي نأمن الاستسلام إلى جموح العواطف أو ميوعة المواقف لنجعل العدل فيصلاً، ولنضبط أعمالنا وتصرفاتنا وأحكامنا على ساعته.

(١) مع أن الأمانة والاستقامة والابتعاد عن الشر بكافة صورته هو التهيؤ الضروري والسابق لكل ما يعقبه من أعمال وسياسات فهناك احتمال أن تتحول الأمانة إلى سذاجة، والطيبة إلى غفلة، وأن يتلبس البعد عن الشر بصور عديدة من الضعف والاستسلام، وأن تتغلب الروح العاطفية فتدفع بالإنسان إلى صور من السرف أو الجموح أو الشطط أو تجعله يرى السراب حقيقة، والتمنيات واقعاً.

من أجل هذا لا بد لنا من ضوابط تحول دون الانحراف، ولا بد من ساعةٍ دقيقة لا تؤخر، ولا تقدم، ولا تتغير بتغيير الأماكن يضبط عليها كل واحد تصرفاته وتكون في الوقت نفسه صادرة عن ذاته، وإيمانه، وليست بعيدة عنه أو مفروضة عليه من الخارج، وهذه الساعة هي حاسة العدالة.

والعدل هو قوام المجتمع، ولا يمكن النزول عنه لأن النزول عنه يصبح ظلماً أو تفریطاً، وقد يمكن الارتفاع عنه، فالفضل أعلى من العدل، والحب أسمى من الفضل، ولكن هذه المستويات مما لا يمكن مطالبة الناس جميعاً بها على وجه الإلزام، لأنها مما لا يمكن أن يطبقوا، ولا هي مما يمكن أن تدور عليها معاملات وعلاقات المجتمع؛ لأن الضوابط تنعدم فيها، من أجل ذلك أصبح العدل هو القاعدة، فما اتفق مع العدل فلا مأخذ عليه ولا مباحكة فيه، وعلينا أن نلتزم به وننزل عليه، وعلينا أن ننمي في نفوسنا حاسة العدل والإنصاف بحيث يصبح الالتزام به دأباً وعادة، وتعجز المغريات عن السيطرة علينا.

(٢) عندما يضع المجتمع أصول ومعايير العدالة، يغلب أن يخضع مستوياتها بحيث يرى أن فقر الفقير، واستسلام الضعيف أمراً عادلاً، ولكن الأديان مبدئية. وهي أسمى من المواضع الاجتماعية، والمؤثرات السياسية والاقتصادية، وبالنسبة للإسلام بالذات فإن العدل هو الطابع الرئيسي المميز للإسلام، ولهذا فإنه لا يقتصر على الاقتصاد، ولكنه يمثل " القصد " وكل واحد يؤمن به إيماناً واعياً عميقاً يكتسب حاسة للعدل تعرف صاحبها على العدل حقاً بحيث إذا انحرف عنه، فإنها تحوك في صدره، وتحمله على أن يعيد النظر، أو يتوب أو يكفر عن ذلك.

(٣) بالإضافة إلى "حاسة العدل" التي تتمكن في نفس المسلم نتيجة لإيمانه بالإسلام، فإن الإسلام لا يقصر العدل على أن يكون شعارات عامة، واتجاهات فردية، بل وضع كذلك قواعد ومبادئ يفترض أن تطبق في أي مجتمع إسلامي، وقد تضمنتها آيات القرآن وأحاديث الرسول، كما طبقت بالفعل خلال مجتمع المدينة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين.

[٦]

لكي لا نضل في التقدير وفهم الأمور على حقيقتها، ولكي نصدر أحكامنا على هدى وبصيرة لا بد أن نستخدم عقولنا، ولا بد أن نتعلم ونتعلم إلى آخر مدى كوسيلة لتنمية قدرات هذه العقول ومعرفة وسائل التطبيق، وعلينا أن نستخدم علمنا في إطار الأمانة، والطيبة والعدالة.

إن العقل هو الأداة التي أنعم بها الله على الإنسان للتمييز بين الخطأ والصواب، كما أن القلب هو الأداة للتمييز ما بين الشر والخير، والعقل هو القوة، والقلب هو الأمانة، وما ننشده هو الجمع بينهما حتى نصل إلى "القوى الأمين" بتعبير القرآن، ولأن القوى دون أمانة يمكن أن ينحرف ويفسد، ولأن الأمين دون قوة يمكن أن يضعف ويعجز.

ولا يجوز أن يقف أمام العقل وطلعته سوى شيء واحد هو ذات الله تعالى وما وراء الموت والعالم الآخر، لأن العقل الإنساني يعجز عن إدراك ذلك، وكلام الفلاسفة شاهد على ذلك، وبقدر ما يتعين على العقل أن يقف أمام ذلك وأن يأخذ بما يقدمه الوحي، بقدر ما يكون عليه - أي العقل - أن يفصل هو فيما سواه، وبقدر ما يكون تدخله في الأولى جرأة لا جدوى منها إلا التخبط، بقدر ما يكون إهماله في الثاني تقصيراً وغفلة وإهداراً لأثمن ما أنعم الله به على الإنسان.

(١) يتحدث القرآن عن أداتين في النفس الإنسانية هما "القلب، والعقل"، والقلب في القرآن أعظم من تلك العضلة الصنوبرية في الصدر، كما أن العقل هو أعظم من تلك الخلايا الهلامية في المخ، وهو يوضح أن للقلب بصيرة يدرك بها الخير من الشر، بل هو يرى فيه أداة "يعقل" بها الإنسان، كما يشير القرآن إلى العقل باعتباره الأداة التي تدرك حكمة ما في الظواهر الكونية من حياة أو موت، وشموس وأقمار، ومحل وأثمار.. الخ.

أن القلب المسلح بحاسة العدل سيكفل لنا معرفة الخير والشر، وسيحول بيننا وبين الشطط والسرف، ولكن معرفة القوانين التي تحكم هذا الكون، وما في الطبيعة من موارد وقوى يمكن استخدامها لإثراء الحياة الإنسانية، وتحقيق ما أراه الله للإنسان من كرامة تليق بخليفته في الأرض هو مما يعود إلى العقل، ومن هنا فقد تعددت الآيات التي تأمر بالنظر، والتدبير، وإعمال الفكر، واستخدام العقل، والتي تحذر من الغفلة والإعراض، بل إن القرآن جعل الذين يمرون على آيات الله في النفس والطبيعة غافلين أسوأ من الأنعام "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"، "أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ".

ونحن نرى أن من أوجب الواجبات أن نستخدم عقولنا، ونعمل أذهاننا ونتعلم إلى آخر مدى، ونلم بكل المهارات ونؤمن أن التراخي في ذلك من الموبقات والمخالفات الصريحة لتعليمات القرآن الذي نزلت الآية الأولى فيه صاعدة "اقرأ" وهو من أكبر أسباب ضعف المسلمين في العصر الحديث وتدهور منزلتهم الأدبية والمادية.

(٢) تكثر الإشارات في الكتابات الدينية إلى قصور العقل البشرى والميل لأن يكون الإيمان بكل شيء تسليمًا دون إعمال عقل أو تفكير، وهذا خطأ فاحش فإن الشيء الوحيد الذي يقف أمامه العقل البشرى هو ذات الله تعالى وما وراء عالم الموت من الدار الآخرة، والبعث والنشور والثواب والعقاب.. الخ، لأن العقل البشرى كما أظهرنا ذلك يعجز عن إدراك ذلك، وكلام الفلاسفة شاهد على ذلك وبقدر ما يتعين على العقل أن يقف أمام ذلك، وأن يأخذ ما يقدمه الوحي، وبقدر ما يكون عليه أن يفصل فيما كل ما سواه وأن يتلمس فيه العلة والحكمة، بقدر ما يكون تدخله في الأول جرأة لا جدوى منها إلا التخبط، وبقدر ما يكون إهماله في الثاني تقصيراً وغفلة، بل وإهداراً لأثمن ما أنعم الله به على الإنسان.

ومن هنا يجب أن تكون التفرقة واضحة ومحددة، والفقهاء أنفسهم رغم الطابع العام لحديثهم عن التسليم والتقليد لم ينكروا أن العقل هو مناط التكليف، وأن الإيمان لا بد أن يقوم على اقتناع، فإذا كان للعقل دور في هذا، فهو في بقية شئون الحياة ألزم وألصق، ومن الخير لهم أن يمجدوا العقل بدلاً من تكرار الحديث عن نقص العقل البشرى.

[٧]

العمل هو التعبير عن الحياة والإبداع وإشباع الشخصية ووسيلة كل واحد لأداء واجبه نحو المجتمع وإسهامه في بنائه، ومن هنا فيقدر ما يكون عطاء كل واحد وافرًا بقدر ما يتمتع المجتمع بحياة وفيرة ؛ لأن كل واحد يعطى قبل أن يأخذ، وليس هناك من يأخذ دون أن يعطى، فضلاً عن أن ذلك سيجعل المجتمع ينتصر في أعظم التحديات التي تواجه المجتمعات المتخلفة، ألا وهى : "التنمية " ويتصدى للعديد من صور الافتيات التي تحفل بها السياسة الدولية.

ومن خصائص العمل في العصر الحديث اقترانه بالعلم.

ونحن نؤمن أن هناك عملاً لكل واحد.. وواحد لكل عمل، وأي خلل في هذا إنما يعود إلى خلل في السياسات والنظم، والعمل في الإسلام مصداق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب. فواجب كل منا أن يعمل، وأن يبتغى بعمله وجه الله وخدمة المجتمع، وأن يؤدي عمله بعلم ومهارة وإتقان وإخلاص.

(١) العمل دليل الحياة، ففي كل الكائنات تعد الحركة والنمو والتنفس من أهم علامات الحياة، وهى بالطبع ما يدخل في عداد العمل، وإذا كان الوجود محدودًا بإطار من زمان ومكان، فإن العمل هو الذي يملأ هذا الإطار، ويجعل له مضمونًا.. وإلا أصبح إطارًا فارغًا.

والعمل بالنسبة للإنسان تعبير عن الحياة، وعن الشخصية، ووسيلة ما يمكن لهذه الشخصية أن تقدمه من عطاء يجسد فكرتها، ومهارتها وواجبها وإضافتها للمجتمع، ويقدر ما تكون هذه الإضافات وفيرة بقدر ما يتمتع المجتمع ككل بحياة وفيرة تشبع فيها كل الاحتياجات، ولا يحس أحد نقصًا أو عوزًا، لأن كل واحد سيعطى قبل أن يأخذ، ولن يكون هناك من يأخذ دون أن يعطى، كما أن هذا سيمكن المجتمع من أن ينتصر في أهم معركة تجابهها المجتمعات المتخلفة، ألا وهى التنمية التي يهدد الفشل فيها هذه المجتمعات بأن تكون عاجزة عن صد العديد من صور الافتيات التي تحفل بها السياسة الدولية، وقد تصبح تبيعة خاضعة في كل شيء لإرادة هذه الدول التي لا ترحم أو حتى لعدوانها العسكري.

(٢) والعمل في العصر الحديث يرتبط بالعلم ويقوم عليه، فالعمل الغشيم، والعمل الرخيص أصبحا أثرًا من الماضي، وما لا يمكن أن يقف أمام العمل المرتبط بالتكنولوجيا الحديثة.

(٣) نحن نؤمن أن هناك عملاً لكل واحد، وأن البطالة ليست كما يظن مما لا مفر منه، إن إعادة التدريب يمكن أن تحول المتعطلين إلى المجالات المطلوبة، وهناك دائمًا مجالات مطلوبة خاصة في الخدمات، كما يفترض أن لا يوجد تخصص لا يجد عاملاً، إن هذا وذاك إنما هو نتيجة لخلل في سياسات "قوى العمل" أو النظم التعليمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

(٤) أعلى الإسلام منزلة العمل واعتبره مصداقاً للإيمان، فلا يذكر القرآن "الَّذِينَ آمَنُوا" إلا ويقرنها "وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ"، فكان عمل الصالحات ثمرة الإيمان، ومصداق خلوص هذا الإيمان، كما أن العقاب والثواب في الحياة الأخرى إنما يكون بناءً على العمل " بما كنتم تفعلون " ، أو "بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ".

(٥) يتضح من هذا المنزلة الجسيمة للعمل، سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع بالنسبة للحياة أو للإسلام، ومن ثم فواجب كل منا أن يعمل، وأن يعمل، وأن يبتغى بعمله وجه الله وخدمة المجتمع، لأن هذا واجبه، وسيعود عليه في الحياة الدنيا والآخرة، وسيسهم في تدعيم الحياة الكريمة والوفيرة، وأن يقترن عمله بالعلم والمهارة، والإتقان والإخلاص.

[٨]

المجتمع التزام، ولا يتماسك مجتمع إلا بقدر ما تربطه التزاماته وهو يقوم على قاعدتين الحرية في الفكر، والعدل في العمل، وعلينا أن نمثل لهذا، ونأخذ أنفسنا به.

(١) في اللحظة التي يلتقي فيها اثنان تنشأ التزامات من علاقات، وحقوق وواجبات.. الخ، ويصبح من الضروري تعيين هذه الالتزامات ووضعها موضعها الصحيح بحيث لا تحيف على الفرد أو المجتمع.

وقد كان هذا الأمر - ولا زال - محوراً لدراسات سياسية واجتماعية مستفيضة، وغلب على بعضها إعلاء الفرد على الدولة (باعتبارها ممثلة المجتمع) بينما غلب على البعض الآخر إعلاء الدولة على الفرد، وقلماً أمكن الوصول إلى التسوية السليمة التي لا تحيف على الفرد أو تجرد الدولة من سلطاتها المشروعة.

(٢) لقد حسنا هذا الأمر في ثلاثة خطوط عريضة هي :

(أ) لا بد من التزام ما دام هناك مجتمع. وعلى من يضيق به أن يترك المجتمع، وأن يبحث له عن جزيرة يعيش فيها وحده، (وحتى في هذه الحالة فإنه يكون - من الزاوية الإسلامية - ملتزماً نحو الطبيعة).

(ب) كل ما يتعلق بالفكر يفترض أن يكون حراً ما لم يمس سمعة أو كرامة أشخاص، لأن هذا الفكر يمثل "الضمير" إذا كان هذا الفكر اعتقاداً، والعقل إذا كان هذا الفكر بحثاً ودراسة واستكشافاً، ويجب عدم المساس بهذين أو التدخل بما يحد حريتهما، حتى عندما تتولد عن هذه الحرية بعض السوءات، لأن سوءات حرية الفكر أقل من سوءات التدخل فيها.

(ج) ما يتعلق بالعمل أو يأخذ شكلاً عملياً (وبوجه خاص في الاقتصاد) يخضع للعدل، ويكون العدل هو الفيصل، ولا يمكن أن يعد العدل ظلماً لطرف، وإنما هو تحصين لطرف من ظلم الطرف الآخر، ولا يجوز أن يضيق أي طرف إذا رفض منه الظلم أو اتخذ معه من الإجراءات والضمانات ما يحول دون أن يكون ظالماً، ومن هنا تكون سوءات التدخل فيه أقل من سوءات تركه حراً.

نحن جزء من المسيرة الحضارية للبشرية التي بدأت من قدماء المصريين حتى الفترة المعاصرة، وأسهمت فيها كل شعوب العالم، واعتزازنا بأوطاننا ومساهماتنا لا تغفل أو تنكر ما قدمه الآخرون أو تنسينا أننا جميعاً أسرة واحدة تعيش على كوكب واحد، لهذا فنحن لا نقف موقف التجاهل أو التحامل تجاه الحضارة الحديثة، ولا يمكن أن نرفضها جملةً وتفصيلاً، لأننا جزء منها، ولأنها في كثير من جوانبها تمثل تقدماً، ولأننا نعيش عملياً فيها، وموقفنا منها هو الموقف الذي حدده الإسلام "الحكمة ضالة المؤمن ينيشدها أنى وجدها"، فخيرارتنا هي التي تحكم موقفنا.

الحضارة الحديثة هي التي تحمل أوروبا مشعلها اليوم لا تعود إلى أوروبا وحدها (وان عادت إليها معظم أمجاد ووصمات القرون الأخيرة) فقد بدأت منذ أن بدأت البشرية مسيرتها، وأسهم فيها كل شعب من شعوب العالم بما هو مهياً له، ولهذا فإن كل الدعاوى عن احتكار الحضارة من قبل شعب واحد مرفوض، ولا يجوز لشعب ما أن يقول "هذه حضارتي" أو أن يستعلى على الآخرين، فلكل شعب اعتزازه ولكل شعب إسهامه، كما أن توقع كل شعب داخل حدوده وتجاهله للحضارة الحديثة ليس من الحكمة في شيء لأن الحضارة الحديثة رغم كل ما اصطحبت به من شرور لا تخلو من أمجاد، وهي في بعض جوانبها تمثل تقدماً رائعاً لم يسبق، فضلاً عن أن فكرة التجاهل والتفوق نفسها عقيمة، وغير عملية، ومخالفة لتوجيه القرآن الذي ينص على أن الله تعالى خلقنا شعوباً وقبائل لنتعارف، لا لنتناكر أو ليتجاهل بعضنا بعضاً، ولا يجوز أن تثور حساسية إزاء اقتباس الصالح من هذه الحضارة، لأن هذا يتفق مع موقف الإسلام من ناحية اعترافه بالنظم السابقة ما لم يكن فيها مخالفة له، وبأن التوجيه الإسلامي قرآناً وسنةً يوجب علينا أن نجعل الحكمة ضاللتنا، وأن ننشدها أنى وجدناها، وأن لا يجرمنا شأن قوم على أن لا نعدل "اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى"، "وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ". ولا نرى تعارضاً بين اعتزازنا بأوطاننا وتقاليدنا، وبين الأخذ بكثير من صور ومظاهر الحياة الحديثة، فليس ذلك إلا معادلة في عالم يقوم على المعادلات وتتوالى فيه الإضافات والتجديدات التي تثري الحياة، وتعد جزءاً لا يتجزأ منها، والاعتزاز شيء والجمود على أوضاع ومظاهر شيء آخر، فالاعتزاز ينشأ عن الثقة والايجابية، والجمود ينشأ عن التقليد والسلبية والأول يثرى، والثاني يوهن، وفي كثير من المجتمعات الإسلامية يوجد الثاني دون الأول، وليس هو من الخير في شيء.

إن الإسلام يؤمن بالعالمية، والروابط الإنسانية، ووحدة الجنس البشري. كما أنه يسلم بالاختلافات الموجودة والخصائص المميزة لكل جنس ودين، وهو يقيم العلاقات ما بينها على أساس ما تتفق فيه وتجمع عليه، ولكل شعب بعد هذا ما يخصه أو يميزه، أو "نجتمع على ما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه".

نحن نفهم الإسلام رسالة تحررية عظيمة أنزلها الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأن جوهرها وألبها الأمانة في الفرد والعدل في المجتمع، والسلام مع الأكوان، ولهذا رمز لها القرآن "بالكتاب والميزان" ووضع التوجيهات والضوابط التي تحقق ذلك، ونحن نرى العبادات وإن كانت جزءاً لا يتجزأ من الإسلام، إلا أنها بحكم هذا نفسه ليست كل الإسلام، وهي بعد وسائل وقربات وليس غايات ونهايات - ويمثلها وقد يزيد عليها - العمل الصالح والخلق الكريم، وما وضعه الإسلام من نظم لصالح المجتمع، وقد وضع الإسلام تفاعلات أو ميكانيزم لإصلاح ما يقع الفرد فيه من خطأ، أو ينساق إليه من ضعف تقوم على الاستغفار والتوبة، وإمحاء الحسنات للسيئات، واعتبر هذه الوسائل كافية لعلاج الضعف والقصور (خاصة في العبادات)، ولكنه بالنسبة للنشر أو ظلم الناس فرض عقوبات قاسية للنزول بآثار الشر إلى الحد الأدنى، وهذه هي الحكمة في الحدود، ونحن نرفض التقليد والالتزام ضرورة بما وضعه الأسلاف، فلا بد أولاً أن نفهم، وقد يؤدي بنا هذا الفهم إلى الإعجاب بما قرروه، كما قد يقودنا إلى رفض ما قرروه، وليس علينا حرج في هذا، لأن الالتزام ضرورة إنما ينشأ عن تفهم النص الجلي الصريح من القرآن والسنة، ولعلنا الآن أقدر من الأسلاف على تفهم القرآن والسنة، والتوجيه القرآني صريح في الأمر بالنظر والفهم والتحذير من اتباع الآباء والأجداد.

(١) من أكبر جوانب سوء فهم الإسلام إغفال الطابع التحرري والهدف الرئيسي له في تحقيق الأمانة للفرد، والعدل في المجتمع، والسلام مع الأكوان. وتجاهل الرمز القرآني لرسالة الإسلام "بالكتاب والميزان" والتوجيهات والضوابط التي تحقق هذه الرسالة، وتوحد المجتمع الإسلامي الذي يطبق ما جاء به الإسلام في الاقتصاد والاجتماع والسياسة.

وفى مقابل هذا الإغفال ظهر التركيز، أو حتى الاقتصار على العبادة وطقوسها والعبادة جزء لا يتجزأ من الإسلام، ولكنها بحكم هذا نفسه ليست كل الإسلام، والاقتصار عليها يحيف على بقية مكونات الإسلام، فضلاً عن أنها وسائل وقربات وليست غايات ونهايات، وقد حفت بأداب لم تعد ملحوظة، وبعد أن كانت رسالة الإسلام للفرد تتبلور في القلب السليم والفكر القويم أصبحت تتبلور في الطقوس والشعائر والشكليات والقوالب، وبعد أن كان العمل الصالح والخلق الكريم يعدان من مكونات الإسلام التي لا تقل عن العبادة إن لم تفقها، فقد ارتأى أن العبادات تغنى عنهما أو تحل محلها.

(٢) وقد وضع الإسلام وسائل لعلاج القصور والضعف الإنساني (خاصة في مجال العبادات) تشبه في مجموعها "ميكانيزم" له طبيعته الخاصة ويقوم على الاستغفار والتوبة وعمل الحسنات التي تمحو السيئات، وهي وسائل من معين العبادة نفسه، إذ لا يمكن أن يعالج أي تقصير فيها بوسائل من القسر، أو بتدخل من خارج النفس، فهذا يفسد العبادة ويبطل النية، فضلاً عن أنه يسمح بصور من التدخل والتطفل

على السراء والخصوصيات، ويفتح الباب لاستغلال هذا كله، وفي مقابل هذه الوسائل الذاتية لعلاج الضعف فإن الإسلام وضع عقوبات شديدة لكل من يرتكب الشر أو يظلم الناس هي "الحدود" لكي ينزل بآثار هذا الشر إلى الحد الأدنى.

(٣) ونحن نعتقد أن من أكبر أسباب تأخر المسلمين سوء فهمهم للإسلام، وإن سوء فهمهم للإسلام بدوره يعود إلى أنهم أهملوا النظر في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وآثروا الاعتماد على أقوال الأسلاف والفقهاء والأئمة.. الخ، ثم الزموا أنفسهم إلزاماً باتباع المذاهب المقررة بعد أن أغلقوا باب الاجتهاد، وبهذا حرم المسلمون أنفسهم من أصل قوتهم، وإعجاز دعوتهم، وتلك الروح الجياشة التي تتدفق من القرآن، كما سمحوا لكثير من الأحاديث الضعيفة أو التي لا يعلم على وجه اليقين ملابسات صدورها- بأن تكون أصلاً للأحكام. وحجب هذا الركام المتعالي من الشروح والحواشي والتفاسير والنقول والمسانيد روح الإسلام وجوهرة وفروض جزئياته على أصوله، وتسلسل إليه السقيم والهزيل والموضوع، مما يتعين معه الرجوع إلى الأصلين العظيمين "القرآن والسنة" رأساً، ودون الالتزام بما كتب من قبل.

وبالنسبة للقرآن فإن هذا لا يتطلب إلا قراءة القرآن بقلب سليم، وعقل واع، "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ"، وبالنسبة للسنة فهذا ما يتطلب إعادة النظر في فنون مصطلح الحديث والمعايير التي وضعها المحدثون، كما أنه بالنسبة للفقهاء يتطلب إعادة النظر في أصول الفقه، ووضعها على أسس من المقاصد العليا للإسلام.

ونحن نرى أن الجمود على ما وضعه - منذ عشرة قرون - رجال مهما كانت قدراتهم فإنهم غير معصومين، يخالف مخالفة تامة أصول الإسلام، ويعد دليلاً لا يدحض على مدى ما وصل إليه العجز والكلال، وانعدام ثقة المسلمين المعاصرين في نفوسهم وعقولهم في حين أنهم اليوم أقدر من الأسلاف على التفكير والتحقيق بفضل المطبعة وفنون التصنيف والفهرسة، مما لم يتوفر من قبل.